معابر

قصص قصيرة

علي فتحي

إهداء

إلى التي ألقتني من نافذة حياتها

فالتقطني بساط الأدب، الذي كان يمر بقريتنا آنذاك،..

السحابة الذهبية

نظر إلى أعلى نظرة خاطفة، ميتة، برقت عيناه بنشوة عارمة، أخذ يتقافز فرحا كأبله ، لقد رآها، إنها هي، السحابة التي ينتظرها ، تلك السحابة التي لا تمطر إلا ذهبا، سارع بتعرية البيت من سطحه الجريدي ، متقبلاً كل الإهانات والسخرية، ستمتلئ حياته ذهبا ، وتتحقق أحلامه ...

تستمر السحابة في السير، تتجاوز منزله، لم تمطر، لم ييأس، واصل سيره وراءها، شاحذا بصره ، فارطا حجر جلبابه الفضفاض، تواصل سيرها ، تتجه نحو الترعة، هو لا يعرف السباحة، غامر بالخوض في الترعة، أيقن الجميع أنه قد أغرق نفسه بنفسه ، لكنه تعلم السباحة ولا يدري كيف، يخرج إلى الشاطئ الآخر، يواصل سيره وراءها ، بملابسه الرثة المبتلة، غير عابئ بالشمس التي بدأت تلملم أشعتها، ولا بجمهرة الأطفال التي أخذت تهتف في مرح وراءه ، "العبيط أهوه ،،، العبيط آهوه"

٢٠٠٠

بناء على طلب الجماهير ....إعادة

مطبق شفتيه ، يعض علي أسنانه ،ناظرا إلى الرجل في صمت ، مثل وحش قبيل لحظة الانقضاض ، في تنهيدة غيظ يخرج الهواء من فتحتى أنفه ملتهبا ، كأنه خارج من أعماق بركان ، تمني لو ينتهي البرنامج سريعا ، يود افتراس هذا الوغد ، يود أن يلقنه درسا في أدب الحوار ، أن يقطع لسانه هذا الذي لا يكف عن الكلام ، شئ واحد يلجمه ، يمنعه من الفتك بهذا الرجل :- البث مباشر ، يستسلم للصمت ، يفرك يديه في غيظ ، قدماه تخبطان بلا انتظام علي أرضية البلاتوه ، عيناه مثل عدستين تركزان الأشعة في نقطتين حارقتين ، يتنهد في ملل بعد نفاد صبره ، ها هي المذيعة تتوجه إليه بالسؤال ، يحاول كبح انفعالاته المتأججة ، يرسم ابتسامة على وجهه العابس استعدادا للرد ، تتدافع الكلمات على طرف لسانه ، لا تلبث أن تعود في خيبة إلى أعماقه ، عندما ينطلق الوغد في الكلام وكأنه يرد بالنيابة عنه ، لم ينبس هو بكلمة ، يزداد غليان دمه ، يكيل له قناطيراً مقنطرة من الشتائم في أعماقه ، تعرج الكاميرا علي وجهه ، يعرض التلفزيون صورته ، ساندا وجهه علي يده يستمع في قرف .....تنتهي الحلقة ، يعض شفتيه في أسى نادما على الكلمات التي أفلتت منه في بداية البرنامج ، تمني لو لم يقلها ، كان سيرفع قضية تعويض علي البرنامج الذي كلفه بالبحث والتقصي ، يقضي الليل ساهرا بين المراجع ، أصابه تراب الكتب بما يشبه الربو ..... يفيق علي صوت المخرج يشكره علي تشريفه ، يخرج ممسكا بحزمة الوثائق التي ظنها كنزا لابد أن يعرفه المشاهدون ، يرمقها باحتقار ، يطيح بها بعيدا ، تتناثر

الأوراق علي الأسفلت ، بعضها يواصل التحليق حتى يرتمي بين أحضان النهر ، يستقل تاكسي إلى المنزل ، ينزل مندفعا دون أن يأخذ الباقي ، يدخل ثم يصفق الباب خلفه ، يهلل أولاده في استقباله : " بابا ..شفناك في التلفزيون " تخبره زوجته أن صاحباتها لتوهن خرجن بعد مشاهدة الحلقة ، فرحات غابطات ، وأن بعضهن حسدها دون أن يفهمن شيئا مما قاله أو قيل في البرنامج كله ،ينهرها ، تتركه ، تدخل عليه الغرفة بعد حين ، غارقا في دخان السجائر ، تسأله إن كان جائعا ، يومئ بالنفي ، يحتسي الفنجان تلو الفنجان من القهوة السادة ، جرس التلفون يقطع تأملاته ، يأتيه أحد أطفاله :-" بابا ، واحدة تقول إنها تريد أن تكلمك ضروري "، ينهض علي مضض ، ترمقه زوجته باستغراب .....

_ ألو .. أنا المذيعة ....."

"هذه الحمقاء ، أتسمي نفسها مذيعة ، كيف لم تستطع أن تعدل في الحوار بيني وبينه ، إنها لا تصلح إلا عاهرة في كباريه "

يرد في قرف بعد لحظة شرود :

_ نعم ؟؟

_ أنا آسفة يا أستاذ ،لم يكن في وسعي أكثر من ذلك ، مستقبلي أهم شئ ، وكما رأيت لا يمهلني لكي.....

يحاول أن يتمالك نفسه ، يرد بامتعاض ، كلمات نفثها مع نفخة ضجر :- " لا ..ولا يهمك ، مع السلامة " يخبط السماعة ، يلعنها بصوت مسموع ، عائدا إلى حجرته ، صافقا خلفه الباب .

يستيقظ في الظهيرة ، بعد فترة نوم مليئة بالكوابيس ، اختمرت خلالها الأوساخ والعرق فوق بدنه ، يزدرد لقيمات بلا شهية ، يحتسي الفنجان تلو الفنجان من القهوة واقفا علي النافذة ، المقهى المقابل مكتظ بالرواد علي غير العادة ، يضع الفنجان الفارغ ، ينزل مستطلعا ، يراقب تلفزيون المقهى ، يفاجئ بنفس المذيعة الحمقاء ، يقترب ، نفس الكلمات التي قالتها سابقا ، بنفس الإيماءات البلهاء ، ومع من ؟ نفس الوغد ، يا للمهزلة ، نفس الأسئلة ، نفس النظرات ، نفس الابتسامات ، حتى الديكور لم يتغير ،تزول دهشته عندما يلمح كلمة "إعادة" في أعلي يسار الشاشة ، ينتظر رؤية نفسه ، الكلمات التي قالها كانت في الخمس دقائق الأولي ، يمر الوقت ثقيلا ، يمضي معظم وقت البرنامج ، يعتريه التعجب والاستغراب والغضب واليأس ، يضرب كفا بكف ، يغمغم بكلام غير مفهوم ، يعلو صوته ساخطا ، تنهال من فمه الشتائم الهيستيرية ، يلوح له الناس مطالبين إياه بالسكوت ، يصاب بالذهول ، يزداد دهشة عندما يقرأ العبارة المكتوبة أسفل الشاشة :- " بناء علي طلب المشاهدين ، تمت إعادة البرنامج " ، يغادر المقهى وهو يصب أقذع اللعنات علي البرنامج والضيف والمذيعة والمخرج والمشاهدين واليوم الأسود الذي قبل فيه تلك الدعوة ....

٢٠٠٣

انتصار بالفرار

نفد صبره قبل أن يعثر على مكان ظليل ، جذبته رائحة الطعام إلى تناول الغداء في لهيب القيلولة ، أوزة محمرة تدعوه لالتهامها ، ينضح سطحها بالسمن البلدي ، تلمع تحت أشعة الشمس التي دنت من منتصف السماء ، يشرع في تناولها ببطء ، كأنه يتذوقها ، يقاطعه نباح مزعج لكلب مسعور ، يقترب شاهرا أنيابه بعد أن اشتم الرائحة ، لم يستطع مقاومة إلحاحه ، يلقي إليه بالفضلات محاولا إخماده ،يصاب بالدهشة ، حين يراه مستمرا في النباح وكأنه يطلب المزيد ، يمده بالمزيد ، يتمادى الكلب في النباح بضراوة أشرس ، يلتفت إليه الرجل بنظرة استغراب وضجر ، يصاب بالفزع حين يلمح في عينيه نظرة مسعورة نحو الأوزة ، يهب مذعورا وقد أحس أنه هو أيضا في محيط تلك النظرة ، يحبس أنفاسه في رعب ، يرتد ببصره إلى الأوزة ، تنفرج أساريره فجأة ، تشع من عينيه طمأنينة عجيبة ، رآها تتحرك في الطبق ، تعود إليها أعضاؤها الغائبة ، تواصل انتفاضتها ، يعود إليها الريش فتكتمل هيئتها ، تهب من الطبق، تتجه للرجل ، تدخل بين طيات ملابسه ، تغيب في ثنايا جسده ، يبرز جناحاها من بين ضلعيه وقد ازدادا حجما ،يرفرف الجناحان ، يتوقف الكلب عن النباح وقد ألجمه المشهد ، يجمد في مكانه كتمثال ، بينما عيناه تتابعان الرجل الذي أخذ يحلق بالجناحين هاربا إلى أعلى ..

٢٠٠٤/٦

المنبوذ

الأرض تهتز ، ترتعد ، في تلك البقعة النائية ، المخضبة بدماء القتلى ، تثور الزوابع ، ها هو ينسل تدريجيا من بين التراب ، مخترقا هالة الغبار التي تكونت في موقع الحدث ، جسد طيني متماسك ، في ضخامته يفوق تماثيل الميادين الكبرى ، تكاد رأسه تلامس سعف النخيل ، ها هو يتقدم بساقيه الغليظتين كجذوع الأشجار ، مترددا يحاول تحديد اتجاه سيره ، يدلف إلى الطريق العام ،يحاول تقليص المسافة بين قدميه ، منعا لدهس الزروع علي جانبي الطريق ، تلوح له المنازل في البعد ، يقترب منها ، كأنه يعرف سكانها ، ملهوفا كمن عاد من غربة طويلة ، .. تتباطئ خطواته إثر صدمة حادة ، غيرت ملامحه : كل من يراه يطلق ساقيه للريح ، وحدهم الأطفال أقبلوا ملتفين حوله ، ينضم إليهم قلة من الشباب والشيوخ ، تبعوه بالهتافات ، فرحين بمجيئه ، يحاولون ملاحقة خطواته الواسعة ، وصل إلى قلب الحارة ، لم يكد يلتقط أنفاسه ، حتى فوجئ بوابل من النيران ينهال عليه من كل اتجاه ، من الشرفات ومن فوق أسطح البنايات ، إلا أن جسده يبتلع الرصاص بلا تأثر، وعندما نفدت ذخيرتهم سارعوا بالاختباء وأوصدوا خلفهم كل الأبواب ....

يلتفت إلى أتباعه ، يصعقه الألم ، رآهم غرقي في دماءهم ، يسكب عليهم نظرات الإشفاق والحسرة ، يدب الوهن في عزيمته ، يقف وقفة اليائس ، يرمق المنازل بنظرة وداع أخيرة ، يستدير متخذا قرار العودة ، عرج إلى الأسفلت ، سدد نظرة إلى المدى ، فرأى برك السراب تلمع علي طول الأسفلت ، مسرعا سار يسد الطريق ، تتوقف حركة المرور ، تمرق بعض

السيارات من بين قدميه ، يشعر بعروقه تبدأ في التصلب ، ، بدأ جسده يصاب بالتيبس شيئا فشيئاً ، تتجمد عروقه تماماً ، ويبدأ جسده في التشقق ، تتوقف خطواته تماما ، يحاول جاهدا تحريك قدمه فتنفصل ساقه عن جسده ، تهوي فيهوي علي إثرها باقي جسده ، كان لسقوطه دوي هائل ، قذف الرعب في القلوب ، عروقه تحولت إلى جواهر واللآلئ ، يتناثر بعضها على الأسفلت ، بدأ الناس يتوافدون ، يتكاثرون على حطامه ، يتعاركون لاقتناص الجواهر واللآلئ ، يفتتون ما بقي متماسكا من أجزاءه ، يخرجون ما بداخلها ، مع الغروب ، كان الرجل الطيني تراباً تذروه الرياح ، وتدكه الأقدام والسيارات ، الجواهر واللآلئ ملأت أيديهم ، بدأوا يعبئون بها جيوبهم ، لكنها لم تلبث أن طارت من أيديهم وجيوبهم وفارقتهم إلى الأبد ، وتحولت إلى نجوم بعيدة .....في السماء .

٢٠٠٤/٩

الدون

أخيراً ، أفلتت منه ، دون أن يشعر ، لم يكن ينوي التفوه بها مدى الحياة :- " أحبك " ، تدوي الكلمة في مسامعه ، تتداح أصداؤها فترجرج كيانه ، يفيق بعد لحظة شرود ، كمن يفيق بعد إطلاق رصاصة غير مقصودة ، يعتذر في خجل ، تتعجب لتراجعه ، تصارحه بأنها كانت تنتظرها منذ اللقاء الأول ،وأن طريق الزواج أصبح ممهدا ، لم يكد يسمعها ، تغيرت ملامحه فجأة ، فزع من علي الكرسي ، برقت عيناه في وجهها ، يسألها مستوثقا :- أنت ؟؟ تتزوجينني ؟!! ، تجيبه بإيماءة باسمة ، يطلب منها النهوض بسرعة ، تطاوعه قائمة ، تتبعه إلى حيث يقودها ، لا تبدي أي اعتراض ، تعرف أنه طيب صافي الضمير ، يصلا إلى مسكنه ، يدفعها إلى الداخل ، يغلق الباب متأهبا للقيام بعمل ما ، لم يهتم بإغلاق النافذة ، يشهر في وجهها سلاحا أبيض ، محذرا إياها من أية بادرة للمقاومة ، وبعدوانية باردة ، يأمرها بخلع الملابس ، تصرخ ، يندفع مكمما فاها بيده ، مهددا إياها بالذبح إن هي أبدت أي استغاثة ، تتساقط الدموع من عينيها مع تساقط قطع الثياب من علي جسدها ، يندفع بنفسه منتزعا ثيابها عندما يفطن إلى تلكؤها ،وعندما تصبح شبه عارية ، يدور حولها والسلاح في يده ، متفحصا بعينيه كمن يبحث عن شئ ما ، يعود إليه الهدوء رويدا رويدا ، يتوقف بعد عدة دورات ، تفحص خلاله كافة أجزاء جسدها ، يترك يده لترتخي ، يسقط منها السلاح ، لم يعبأ ، يشرد بعيدا وآثار صدمة بدت علي وجهه ، يجاهد في إقناع عقله بالتصديق ، تنشب معركة ضارية بين عقليه ، تنتهي بسقوطهما في هوة الذكريات ....." يتوجه إلى والده ، طالبا

مصروفه المدرسي ، يرمقه الوالد بنظرة غاضبة ، يرسل يده للغوص في جيبه ،تخرج قابضة علي خمسة قروش يمدها له :

- خسارة فيك ، غور ...

يتناولها بفرحة جوفاء كالبالونة ، التي لا تلبث أن تنفجر علي يد الناظر ، الذي يلعن الحي والميت في أهله ، توبيخا علي عدم سداد الرسوم ، يمضي الإعدادية والثانوية بنفس الوتيرة ، جرعة يومية من الشتائم والإهانات ، حفظها حتى امتصتها خلاياه ، يركله مكتب التنسيق إلى كلية لا يرغبها ، لم يسمع جديدا من أي دكتور فيها ، نفس الكلمات التي تنضح بالمهانة ،لكن بأسلوب بروتوكولي متحضر : تافه سطحي ، فارغ العقل ...

لم يعد يأبه ، أصبحت من تكوينه، كل كرة في دمه صبغت بالحقارة ، تشرب الدونية حتى باشت فيها روحه ، حتى عند تخرجه ، يفاجئ بوالدته وقد خطبت له ابنة أختها ، دميمة لا يطيق وجهها ، احتج متذرعا بعدم حبها ، تثور أمه وتلعن تبطره ، معلنة علي الملأ :

- لن ترضي بك سوي عمياء أو عرجاء أو معتوهة ..

يخرج من الهوة ، يلتفت للفتاة ، يهتف في أعماقه :-

- لا يا أماه ، ها هي .... لا عمياء ولا عرجاء ولا معتوهة ، بل هي ذات جمال فائق ، بل وتبادرني بعرض الزواج ...

يفيق من شروده علي صوت الفتاة ، تسأله في عتاب : أجننت ؟

يجيبها بسؤال ساخر :

- من ؟ أنا أم أنت ؟!!

ينشغل عنها، كانت قد اتمت ارتداء ملابسها ، ترمقه بنظرة استغراب ، ثم تنصرف ، يدلف إلى غرفة النوم ،يتوقف أمام مرآة الدولاب الكبيرة ، يمسح صورته بنظرة فخر واعتداد ، يصرخ فيه الدون من المرآة :

- لا ..لا تصدق ، المرآة كاذبة ...

يلعنه ويلعن المرآة ، ينهال عليهما ركلا بقدميه ولكما بكلتا يديه ورأسه ، تتحطم المرآة ، تتناثر الجروح فوق جسده ، تتقطع أوردته ، لم يصرخ ، ترنح ساقطا فوق الشظايا ، ترك العنان لدماءه الملوثة ، التي انطلقت حاملة معها ذرات روحه الذائبة .....

٢٠٠٣/٨

انتقام في جعبة الموت

تستيقظ في حلكة الليل ، يغط الجميع في نوم عميق ، تتسلل علي أطراف أصابعك إلى حجرة والدك ، تتحسس بيديك بحثا عن جلبابه ، أخيرا تقبض عليه ، يدوي رنين النقود الفضية ، ترسل يدك للغوص في جيبه ، تسحب عدة أوراق ، تدفنها في جيبك ، تعيد الجلباب إلى مسماره فوق الحائط ، يضئ النور فجأة ، ترتجف ، ترجك القشعريرة ، تصطك أسنانك ، ضربات قلبك تقرع كطبول حرب ، تفرك عينيك مستوضحا ، يأتيك صوته فيزلزل كيانك :

- ماذا تفعل ؟ ألم تتب ؟ !
- هه ....لا ..أنا ..كنت ..
- كنت ماذا ؟ أبعد أن ربيتك وكبرتك وعلمتك ، وتجرعت المر وعانيت الأسي من أجلك ...يكون هذا جزائي ؟ ...تسرقني ؟...تسرق أباك يابن ال...

يكيل لك الشتائم ،يرتفع صوته ، يخرق سكون الليل ، يدوي صداه في كل الأنحاء ، تهرب من التوبيخ وحرق الدم ، وحدك تتمشي مطرقا ، ترقب صورتك في المستنقعات التي تملأ الطريق ، تجد نفسك تلقائيا تفكر فيها " أكل هذا من أجلها ..ملعون أبوها " ، ها هي تناديك في البعد ، تبتك وعودا بالمتعة ، بالعيش في ليالي الأنس والفرفشة ، تنهار حصون مقاومتك أمام إغراءها ، تهم إليها في تحفز ، تنفرد بها في مكان بعيد عن أعين الرقباء ، تنال منها الغرض ، بعدها ، يصيبك

الفتور ، تنشغل عنها لبرهة ، ثم يعاودك الشوق إليها ، تبحث عنها بجنون ، تتمنع عنك ، وفي لطف تقودك إلى هناك ، حيث المتعة الحقيقية ، تتساق وراءها خلف أحلام السعادة المطلقة ، تدخل بك أوكار الحشيش والبانجو ، تتبعها لاهثا ، تشعر بنكهة خاصة للحياة ، ترتقي سلم السعادة ، شاحذا بصرك لأعلي ، حيث النجوم التي تزداد بريقا باقترابك ، ، تواصل الصعود عازما علي قطفها ، لتتحقق لك اللذة الأبدية ، ها أنت تقفز درجة أعلي من السلم ، تنال رشفة أكبر من اللذة ، تزداد تحليقا في فضاء النشوة ، تستمر في الصعود ، لا يستهويك النظر إلى الأرض السحيقة ، المكتظة بالمنغصات ، تجتاز درجة أعلي ، فالتي بعدها .....تقطع مسافة هائلة ....تفاجئ بانتهاء السلم بعد أن تحمل بقدمك علي لا شئ ، تطلق صرخة مدوية ، لا يسمعها أحد ، تهوي من هذا الارتفاع ، ساقطا فوق هذا السرير اللعين ، تتقلب علي فراش المرض ، تصبح طاعنا في السن رغم شبابك ، محاصرا بالأعداء من كل جانب : الموت علي بعد أيام منك ، يرمقك بوجهه القبيح ، يبتسم ابتسامة الظفر كأنك قد أصبحت في جعبته ، السجن يعين عليك حارسا بغيضا صارم الوجه ...حتى وأنت في المستشفي ! ، خلفك الماضي المضرج بالدم والفحش والبانجو ، تنظر إليه من خلف قضبان الواقع الصلبة ، لكم تود أن تمتطي صهوة الزمن ، تدير الزمام للخلف ، تجتاز الأميال الزمنية الوعرة ، نافذا إلى عمق الماضي ، حتى تلتقي به ، مرة أخري ، وجها لوجه ، ذلك الشخص الذي كان سببا فيما أنت فيه

، تمتد إليك يده للمصافحة ، تلك اليد التي امتدت إليك بأول سيجارة ، تبادر بقطعها دون تردد ، تعب من دمه ما يشفي غليلك ، بعدها .. تواصل رحلتك الانتقامية ، تقطع قرونا وقرونا ، تتوقف عند الهنود الحمر ، تباغتهم وهم ملتفون حول النار في ذروة نشوتهم ، تبيدهم عن بكرة أبيهم ، تنهمك في اقتلاع زرعهم الخبيث ، حشد من الغزاة يلوح في الأفق ، يقتربون منك ، تهب لمواجهتهم ، تعرف أن قائدهم يدعي كولومبوس ، يشهر في وجهك سلاحه ، تنازله حتى ترديه قتيلا ، يفر منك الجميع ، تعود لتطهير الأرض من الزرع الخبيث ، تتوقف لبرهة لالتقاط أنفاسك ، مسددا نظرة استطلاع إلى الأفق البعيد ، تتنهد في ارتياح بعد أن تراه مشرقا صافيا ...

يعود ثانية إلى أرض الواقع ، يعدّل من رقدته إلى الجانب الآخر ، ينظر من خلال نافذة العنبر إلى الأفق الذي بدا قريبا جدا هذه المرة ، السحب الملطخة بحمرة قاتمة تغادر الشمس والتي كان آخر شعاع لها يتأهب للمغيب ..

نوفمبر / ٢٠٠٢

أمطار نجسة

شئ مفاجئ ، لم أتوقع حدوثه ، شعرت برجفة ، ترددت في مواصلة السير ، رأيته قادما بخطواته المعتادة الواثقة ، ونظراته النارية التي أشعلت في نفسي رغبة في الفرار والهرولة بأقصي سرعة ، لكن لا ...لن أستسلم للجبن ، سأمضي إلى حيث أشاء ، وقتما أشاء ، لن أخاف ثانية من أي مخلوق ، حتى و لو كان هو ، ها هو يتقدم نحوي ، لا يلتفت للخلف ، حيث الشباب ملتف حول النار المضرمة عند الحدود المحظورة ، والتي لوثت السماء بدخانها وخلفت تلك السحب السوداء التي أغرقت القرية بأمطارها النجسة ، نظراته المصوبة نحوي تقول إنه واثق من أني متوجه إلى هناك ، أنضم لهؤلاء الشباب ، ليس هذا بجديد ، دائما ما تسئ بي الظن يا أبي ، ....ها هو يبطئ الخطي كلما اقترب مني ،حتى يتوقف أمامي طردت وساوسي ، وأدت مخاوفي ، تأهبت للدفاع عن نفسي بكل شجاعة ، ضد سيل الاتهامات التي سيقذفني بها:

- إلى أين ذاهب ؟! ، سؤال متوقع وإجابته جاهزة :-
- إلى أحد أصحابي ....
- أفي هذا الوقت المتأخر من الليل ؟!!
- إنه قادم للتو من سفر ...
- وكيف علمت ؟
- إتصل بي هاتفيا ..

مازلت أقرأ في عينيه شيئا من الشك ، استطردت قبل أن يصل إلى يقين جازم بسوء نيتي :-

- صدقني يا والدي إني متوجه إلى صديقي ، وليس كما تظن أني ذاهب إلى ....
- قاطعني وهو يمد لي ورقة نقدية :-
- لا.. لا ..لم أقصد تكذيبك ، كل قصدي أن البلدة مشتعلة ، والأوضاع سيئة ، ثم وهو ينظر إلى الورقة النقدية :-
- أعرف أنك مفلس ، فخذ هذا المبلغ ، وخف علي نفسك ...

٢٠٠٣/٣

العملاق

وجد نفسه يصارع الغرق في مستنقع هائل ، مياه لزجة قذرة ، طحالب وفطريات وبرمائيات صغيرة ، يحاول السباحة ، يحرك ساقيه وذراعيه بصعوبة ، صوت مرعب يهز المكان ، شبيه بصوت ضفدع ، اقتنع بأنه نقيق ضفدع في أحد مكبرات الصوت ، يجول بعينيه بحثا عن مصدر الصوت ، يتوقف فجأة ، يلجمه الذهول ، ترجه القشعريرة ، لم يجد مكبرا للصوت ، بل وقعت عيناه علي ضفدع حقيقي ، تنفجر من أعماقه صرخة مدوية ، يحاول تكذيب عينيه ، الصوت المرعب يئد كل الصرخات التي يطلقها ، لم يعرف إن كان ضفدعا أم ديناصورا ، وإلى من يوجه كل هذا النقيق ، الذي لا يفهم منه شيئا؟ ،" لا شك أنه يخاطب أبناءه من صغار الضفادع "

يتلفت حوله باحثا عن طوق للنجاة من هذا الكائن الخرافي الذي يرابض علي الحافة عند النهاية ، لم تستطع نظراته أن تخترق الضباب الذي يسربل الفضاء من حوله ، ينظر للخلف ، شاطئ البداية يتواري بعيدا ، يئس من العودة أو الهرب ، أيقن أن قفزة واحدة من هذا الكائن كفيلة بالقبض عليه أينما ذهب ، وأنه لن ينجو من الغرق إلا بمعجزة ، وقبل أن يلاقي قدره ، تنقزه لكزة من زميله الجالس بجواره في المدرج ، يفزع من نومه العميق ، يدور بنظرة استغراب علي الطلبة من حوله ، يرج رأسه كأنه ينفضها مما علق بها ، يهز ساقيه ، يرفع ذراعيه ، كأنه يتأكد من عدم إصابته بالشلل ، يفاجئه الصوت في المكبرات مرة أخري : " ولد ، أي حركة أو نفس في المحاضرة ممنوع " ، يلتفت بسرعة

البرق ، يثبت بصره لاإراديا عليه ، يحملق في هيئته بدهشة ، كأنه لم يستيقظ بعد ، بل يزداد إيغالا في النوم ، والكابوس يزداد إطباقا علي صدره ...

٢٠٠٢/١٠

الجوع

تغلبت علي خوفها الفطري من الليل والعفاريت ، اندفعت تبحث عنه ، كان قد غاب منذ وقت طويل ، أثار ذعرها ، عرفت من إخوته أنه توجه إلى الجنينة، اعتصرها القلق ، لم يوقفها الظلام الدامس عن التوغل بين الأشجار ، صوت تهشم الورق اليابس تحت قدميها أسكت الضفادع والهوام ، لكنه زاد من ضربات قلبها المتسارعة ، وصلت إلى قلب الجنينة ، نادته بصوت خفيض، جاءها الرد سريعا ، لم تستطع أن تحدد موقعه ،سألت :

- أين أنت ؟

جاءها صوته الطفولي:

- هنا فوق النخلة ..

وكأن أحدا قد رماها بحجر ، كاد جسدها يتشقق من القشعريرة ، تباطأت ضربات قلبها حتى كادت تتوقف ، جمدت بارقة العينين مفتوحة الفم لبرهة ، تم عادت تستوثق :-

- ماذا ؟ فوق ال ..

- نعم ...النخلة الرطب ..

تمالكت نفسها ، قفز في ذهنها كل الكلام عن العفاريت والجن ، كل وجوه الممسوسين طفت علي سطح فكرها ، كالفقاعات علي سطح ماء يغلي ، شردت في حكاياتهم الأسطورية ، وكيف أنهم يأتون بأفعال غريبة تعد أحيانا من الخوارق ، ..، " وتسلق نخلة بهذا الارتفاع ، تكاد تكون ملساء تماما ، بعد منتصف الليل ، وسط تلك العواصف ، من طفل في مثل سنه ، ألا يعد من الخوارق "

عادت من شرودها ، غمغمت :- " عليه العوض في الولد "

أفاقها الولد الذي اقترب هابطا ، هرعت إليه تسنده ،حتى استقام واقفا ، ظلت تتحسسه ، تطمئن إلى أنه ما يزال طبيعيا ، العفاريت ما زالت تتقافز في محيط عقلها ، فاجأها بقوله :-

- لم اتحمل جوع إخوتي ، فجئت أجمع بعض البلح ....

فوجئت ، أدارت رأسها ، كأنها تستدير من الظلام إلى نور أضاء فجأة ، اجتاحتها مشاعر الفخر حتى كادت تطير ، تمنت لو أن لها القدرة علي حمله بين ذراعيها وقذفه في الهواء حتى يلامس قمة كبرياءها التي ارتفعت إلى عنان السماء

أفاقت من نشوتها ، ربتت علي كتفه ثم طبعت علي جبينه قبلة حانية :

- لا داعي فقد وصل أبوك تواً

- أخيرا .....

زفرها كأنما قد تخلص من عبء ثقيل ، اصطحبته عائدة إلى المنزل ، سلم علي والده ، سأله عن سبب تأخره إلى هذا الوقت ، أجاب الوالد في وهن :-

- المخبز .....كان به زحام وقتال...

٢٠٠٣/٣

انتقام

يجري محاولا اللحاق به ، كأنه يلهث خلف حلم عزيز ، لم يصدق أنه قد وصل ، كل الأبواب موصدة في وجهه ، يتوقف أمام أقربها ، يسدد نظرة استطلاع للداخل عبر الزجاج ، كتل مكدسة من اللحم البشري ، يطرق عدة مرات ، يرمونه بنظرات فاترة ، لا يلبثون أن يديروا وجوههم إلى الجانب الآخر في قنوط ، يكاد يمزقه الغيظ ،..... وبقبضة يده ، أخذ يخبط في إلحاح ، كمن يضرب بمطرقة علي جدار سميك يود هدمه ، تنفجر من أعماقه صرخة أخيرة :-" افتحوا يا أولاد الكلب " ، لم يأبه له أحد ، تغشي وجهه علامات اليأس المشتعل بنار الغضب ، يكف عن طرق الباب ، يغيب لبرهة ،يعود بسرعة وقد أحضر شيئا ما، كان القطار قد بدأ في التحرك ، وبيده النحيلة يطلق قذيفة حجرية ، تصيب الهدف بدقة ، يعتريه شعور بالطرب وهو يسمع صوت تهشم الزجاج في البعد ، يتنهد في ارتياح ، يتناول الصندوق الخشبي ، يضعه علي أحد المقاعد الأسمنتية ، يشعل سيجارة ويجلس بجواره في انتظار القطار القادم .

٢٠٠٣

الصديق المجهول

شعرت بمجرد رؤيته بشعور لا يطاق ، تحاشيت النظر إليه ، لا إراديا ، حتى عندما كنت اصطدم به وجها لوجه ، كان هذا يحدث مصادفة ، وكأن القدر يعاندني ممعنا في "تكديري " بالوجوه التي أكره رؤيتها ، وفي هذه الحالة ، أضطر –حفظا لماء الوجه – لإلقاء التحية ، تفاديا لمشاعر التكبر والتعالي..

لا أعرف لم كنت أشعر هذا الشعور تجاه ياسر ، ربما لأنه يذكرني بشخص أو أشخاص تربطني بهم ذكريات غير سارة ، أو ربما كما يقول البعض ، أن الأرواح تتقابل في عالم الذر أولا ، قبل أن تُخلق الأجساد. لم يكن في ياسر ما ينفر منه علي الإطلاق ، بل كنت في بعض الأحيان أضبط نفسي متلبساً في حالة من الإعجاب بشخصيته ، بينما هو منهمك في إدارة موقف ما بالحديث أو بالصياح أو بالضحك ، وكثيراً ما أضحك أشد الضحك علي نكاته...

كان شخصية قوية بحق ، لبق يهزم أعتى فطاحلة الكلام ،ذكي لدرجة الحكمة ، ماكر لحد الدهاء ، صعب الإنزلاق في أي مطب ،قلما يخرج مهزوماً من أي موقف ، باختصار "صايع" ، ربما كان شعوري نحوه مبعثه الحقد لا أكثر....

المقرف في الموضوع أنه صديق لأشد أصدقائي معزة في قلبي ، وهو شعبان ، الذي أحبه كثيرا ، وأتمني أن تجمعني به الأقدار في الوحدة الأساسية ، لكني كلما هممت بالجلوس مع شعبان ، أصاب بضيق لا حد

له ، وأقرر البحث عن صديق آخر يشاطرني الحديث ، عندما أجد ياسر معه ، ويخالجني شعور أشبه بشعور الزوجة التي تجتاحها الغيرة عندما تري زوجها يجلس مع امرأة أخري..... وعندما لم أجد فائدة قررت البقاء مع شعبان ، متحاملاً علي ضيقي ، وتلبية لرغبته الملحة ، لكني لم أكن أنبس بكلمة ، لأني لا أتنفس إلا ضيقا وكدراً ، وكنت أستمع بنصف أذن ونصف انتباه ، حتى حدث أن انتبهت بكل جوارحي ، بل ذهلت والدهشة وكل معاني الاستغراب تغمرني ، كان ياسر يتحدث مع شعبان حول موضوع متداول بكثرة بين الجنود المستجدين ، إنه " الكوسة " :

قال :– لو كانت معي "كوسة " لكنت قد ذهبت إلى سلاح " تحريات عسكرية "

لكنه تراجع قائلا :

– حتى الكوسة لم تكن تصلح في مثل هذا الموضوع ، إنه موضوع حساس ، لأنهم سألوني عن البطاقة الشخصية ..

سكت برهة ، ثم أكمل عندما رآنا أنا وشعبان شاخصين إليه وكأننا لم نفهم :

–كان يود أن يعرف ديني ....

هنا تدخلت :

وهل التحريات العسكرية قاصرة علي دين معين ؟

رد قائلا :

نعم ...

وما هو ؟

هم لا يأخذون المسيحي ...!!

هنا صُعقت :

هل أنت مسيحي ؟

رد في عجب مفتعل :-

نعم ....وماذا في ذلك ؟!!!

لم أتوقع أن يكون هناك مسيحي بمثل هذه الدرجة من الصياعة ، مع المسلمين أكثر من المسيحيين ..

عندما لا حظ كل هذا الاستغراب علي وجهي ، سألني هو أيضا باستغراب :

-لماذا الاستغراب ؟١

شرحت له كل ما كنت أفكر فيه من حرص المسيحيين علي عدم الاحتكاك بالمسلمين والتحدث معهم إلا فيما ندر، رد في ثقة :

هذا مع احترامي الشديد لك ولكم – يقصد المسلمين – هذا الشخص يكون لديه شعور بأنه أقل منك وهو لا يرغب في تجاوز حدوده الوهمية .....

ضـحكت بشـدة ، ولا أعـرف أكـان ضـحكاً أم مـاذا ، كنـت مـأخوذا لجرأتـه ودقته المدهشة التي أراها لأول مرة علي وجه إنسان مسيحي ، لم أتمالك نفسي وتوجهت إلى شعبان بالسؤال:

هل كنت تعرف أن ياسر مسيحي ؟١

رد في هدوء :

نعم ، من أول يوم عرفته، ازدادت دهشتي ، وانبساطي ، ظللت مدهوشاً حتى أفقت علي صوت القائد يجمعنا للتدريب .....

انتهزت فرصة تجمعنا أمام "الميس" ، حاولت استطلاع آراء باقي الزملاء ، وكل من أسأله تبرق عيناه في دهشة، وهو ينظر إلى ياسر الذي لا حظ كل شيء فقال في دهاء :-

-علي الله ألا تكرهوني .....

نفيت ذلك بشدة وأقسمت له أن ذلك لن يحدث ، وبالفعل فقد كنت مبهوراً وبدأت أشعر برغبة عارمة في الاقتراب منه .....

المسبحة

لماذا هجرت المسبحة ؟

برغم احتفاظك بالثوب الابيض القصير ، والطاقية التي تمنع النساء – كما زعمت – من الافتتان بشعرك الطويل ، الجميل ، ولحيتك الكثة ...برغم كل هذا هجرت المسبحة ، لماذا ؟

أعرف السبب قبل أن تنطق به ، لكنك تجاهلت الكثير من الحقائق ، فعندما انقطع التيار الكهربائي في تلك الليلة ، ساد اللغط ، وبانت من بين الأصوات طقطقات المسابح مصحوبة ببعض الحوقلات والتسابيح ، حينها .....ظننت أنك من ضمن المسبحين في السر ، لكن عندما جاء التيار مرة أخري ، لم أر في يدك المسبحة ، لك الحق أن تضعها في جيبك وقتما تشاء ، لكن أن تستبدلها بأخري أكثر جمالا وشياكة ، فعذرا علي أني أسأت بك الظن عندما كنا نمشي في ذلك الطريق المظلم ، حين نظرت إلى المسبحة في يدك أي نعم تأثرت بوقع رنات حباتها ، غير أني – بصدق – تمنيت لو كانت فسفورية .....

النظرة الدامية

توجـه إلـى غرفـة النـوم ، هالـه مـا رأي ، البـاب مفتـوح علـي مصـراعيه ، النوافذ مفتحـة محطمـة الزجـاج ، شـظايا الزجـاج تتنـاثر فـوق كـل شـئ فـي الغرفـة ، وتغطـي بـلاط الأرضـية ، توجـه إلـى السـرير ، ذهـل ، دقـق النظـر إليه ، كأنه قد رأي شيئا غريبا ، لم يكن ينظر إلـى الشـظايا المتنـاثرة فوقـه ، بل رأي بقعة حمراء تتوسط ملاءته .....

سوء فهم

قبل أن يرد إليه الصفعة المؤلمة، وفي اللحظة الأخيرة ، تراجع ، صفح عنه ، ثم شكره ، ...عندما بين له أنه كان يود أن يقتل ذبابة حطت علي وجهه ...!

النسمة

أسير عائداً تحت كوبري العباسية

اتجنب النظر إلى أية فتاة حتى لا تشتعل بداخلي الرغبة الحارقة

كلما رأيت بنتا حلوة أشتعل....

ها هي قادمة....

نازلة لتوها من الميكروباص

نظرة واحدة كانت كفيلة بنقل صورة كاملة في ثانية فعلت ما فعلت في قلبي وعقلي

وكأن النظرة تزداد تركيزاً عندما أحاول تجنبها

جسد واضح المعالم لا يختفي تحت بنطال جينز وبودي أزرق فاتح

النهدان يبرزان ويهتزان مع مشيتها....

غريب حقاً

أشعر في لحظة أني زاهد في الدنيا وما فيها كقديس....

و بمجرد أن أرى فتاة جميلة أنقلب إلى ذئب جائع...

حاولت قدر الإمكان كسر نظري عنها

لكن بدا لي أنها بادلتني النظر أيضاً

فلم أفلح في تجنبها

تابعتها وهي تعبر تحت الكوبري إلى أن عبرت واقتربت حيث أسير

هبت نسمة خفيفة فجلعت شيئاً شفافاً يتطاير من ملابسها كأنه طرف طرحة، مما زادها إثارة وجاذبية

تقترب فتزداد تقسيماتها وضوحاً وتزداد النار اشتعالاً بداخلي حتى عجزت عن إيقاف دخانها عن الخروج من عيني...

اقتربت تماماً، رأيتها عن قرب، ورأيت عينيها الجميلة والشيء الذي يتطاير، لم يكن طرف طرحة كما ظننت، ، ولكنه كم السترة(البودي) ، يتطاير في الهواء بلا ذراع .....

٢٠١٢/٧/٧

استعاذة متأخرة

عندما فرغ ، دوي صوت الحمار ، ينهق بعنف ، نهض من علي السرير ، رمق الحمار من النافذة بنظرة شاحبة ، قائلا في حسرة كأنه يحدث نفسه :-

- دائما ما تفيق بعد فوات الأوان ...

مزاح

مزاح

.....

طالب يتوجه إلى دورة المياه، يدخل ثم يخرج بهيئة أخري،

.....

قاعة بها مكتب تقف به دكتورة تنظر إلى مدرجات مليئة بطلبة يقهقون ..

.....

.....

طالب يتوجه إلى الدكتورة ، بملابس داخلية ، يمد لها حزمة أوراق ، وهو ينظر في عينيه المحملقتين في هيئته بدهشه

.....

.....

فضول يكتم الأنفاس ، ويفتح العيون والآذان لتصغي إلى حوار فيه إثارة :-

- ما هذا وكيف دخلت بهذه الهيئة ؟؟
- هذا بحث ...بديل عن الأول الذي لم يعجب سيادتك ، وقد كتبته – مثل سابقه – علي الكمبيوتر ، ولكن بعد أن بعت الملابس ..

الحب الأخير

الآن انتهي كل شيء ..

آخر ما دار بيننا من لقاءات قبل التحول في المعاملة كان ذلك اللقاء ، بعدها حدث ما حدث ، كنا فوق سطح المنزل ، ثلاثة ، أنا وهي وأمها – خالتي – ، كانت تجلس بجواري وخالتي في مواجهتنا ، لا شيء يحدنا سوي سور صغير وفوقه تظللنا السماء التي بدت بعيدة للغاية ، قالت خالتي :

– قل لي يا محمود ، أيعيش الحب الأول ؟

بلا تردد أجبتها :–

– من غير شك ، للأبد ...

كانت تعرف ما بيننا بتفاصيله ، لم أكن أخجل من ذلك ، ولا هي كانت تمنع ابنتها من مقابلتي.

– وما ذنب أزواجكم وزوجاتكم ؟

قلت وقد تولاني إحساس عارم بالقهر والهزيمة :

– ذنبهم أننا ظلمنا .....لماذا نتعذب نحن وهم لا ؟

في تلك اللحظة اقتحم علينا الجلسة بوجهه العابس ، هبت مفزوعة من جانبي ، شعرت بأنه قد ضبطنا في وضع غير مقبول .....

لم أتململ ، منتظرا أن يلقي السلام ، لم يفعل ، اعتدلت و اتكأت علي جنبي ، أخرجت سيجارة وأشعلتها بعد أن يئست من

تحيته ، لم أقدم له تحية السجائر ، لم ألبث أن ودعت خالتي وانصرفت .....، كانت عيناه مصوبتين تشيعاني في غل ، لم أنزل بضع درجات إلا وتطاير إلى مسمعي شرر العراك الذي يبدو أنني قد أشعلته عن غير قصد :

– أهذا هو محمود الذي تحلمين به كل ليلة ..... ردي يا فاجرة !

هبت خالتي في وجهه بلا هوادة ، مدافعة عني وعن أخلاقي باستماتة ، لم أستطع الانتظار ، غادرت السلم ، وقد خنقني إحساس غامض بالذنب ، كأنه دخان سيجارة ملفوفة بالحقد أشعلتها نار الحب .....

دافنا يدي في جيوب معطفي ، ورأسي في أسفلت الطريق ، أتمشي بلا هدف ..... ألقيت بأثقالى علي أول مقهى ، أحسست بطوفان من الدمع قد بدأ في الهدير ، حاولت ضبط أعصابي وسرحت مع القناة الفضائية .....

– " شهران من العذاب يا محمود ، لم أذق للنوم طعما ، البنت تتمنع عني كأني كلب أجرب "

في نفس جلستي هذه كان يجلس في آخر لقاء ودي .....عندما أقسم أنه سيقتلها إن استمرت في ذلك، كانت أحجار الدومينو تضرب كأنها موسيقي دموية .....

" اللعنة ، ألم تكن تعلم أني أحبها وهي تحبني ؟"

سألته متصنعاً الاهتمام الشديد:

- مربوطة ؟١
- ليست كذلك ، كل الشيوخ أجمعوا .....

قفلت عليه اللعب ، جعلت الأبيض من الجبهتين ، أمرته أن يبحث عن البلاطة ..... كان يجري في البلد جريا ، يقلب الورق كالمجنون ، لم يجد البلاطة ، كانت في يدي ... أنهيت بها اللعب ، وأنا أنظر في عينيه بين الضحك والبكاء .....

الموعود

عندما جاء يدفن ما يريد إخفاءه عنهم ، أحس بألم يعتصر قلبه ، يعلم أن وأد الحي جريمة ، لكنه الحل الوحيد ، سيريحه من آلامه وعاهاته بوأده ، وينجو بنفسه من عذاب الشفقة ، تحامل علي نفسه ، وأده ، ظل واقفا فوقه ، يقمع حركات التملص التي يصدرها ، إلى أن شعر أنه قد مات تماما ، لم يلتفت إليه أحد ،بلوم أو عتاب ، أو حتى مواساة ، لم يكن ينتظر ذلك .....

فجأة .....، أحس بأشواك تنمو تحته ثم تنغرس في قدميه ، لم يبد أي علامة للتوجع ، لم يشأ أن يبدو في نظرهم ضعيفا ، لم يعبأ بالدماء التي أخذت تشخب من جسده ، أصابه القلق حين رآها تجري حتى وصلت إليهم ، ظن أنهم ستنبهون إليها ، حينها ، سينكشف ضعفه وتنكسر نفسه ، لكنه دهش حين رآهم يتلفتون باحثين عن مصدر هذه الدماء .....

٢٠٠٢/٨

معابر

أفقت علي طعنة في القلب ، لم تشعر بألم حينها ، خدرتك المفاجأة ، فقط ....وجدت نفسك تسكب الدموع في كأس الصدمة ، ثم تتجرعها ، لتعود فتسكبها ، ...في نفس الكأس ، تندفع راقصا علي إيقاع الألم الذي بدأ يدب قليلا ، بعد أن أفقت من خدرك ، وها أنت ترفع الكأس إلى فيك ، ينزلق من يدك ، يسقط محدثا صوتا سينمائيا محزنا ، تتابعه وهو يتفتت أمامك شظايا صغيرة ، ثم جزيئات أصغر ، فأصغر ....حتى يعود إلى صورته الأولية ...رمال متناهية النعومة ، تقف عليها شارداً ، عقب خروجك منهكا من بين براثن الموج ، هدوء يضمخ الأرجاء من حولك ، لا يتخلله سوي هدير البحر مع وشوشات حادة مجهولة ، تبحث عن مصدرها ، تكتشف أنها طائرة ورقية ملتفة حول نخلة معوجة بالقرب منك ، كانت غاضبة ثائرة ، تكيل اللعنات للريح التي تحاول تمزيق أجنحتها ، وعلي إثر ذلك ، تراجعت نبرة الشتائم من الطائرة ، تحولت في النهاية إلى همس خفيف يشبه الاعتذار ، بعد أن أدركت أنها كانت تود تحريرها ..واحتضانها .....

هدأ البحر ، لكن ...تعالت في أذنيك صرخات طفل يقف علي بعد أمتار ، يلف خيطا مقطوعا وهو يبكي معلقا بصره علي الطائرة الأسيرة أعلي النخلة ، اندفعت نحوه مهدئا من روعه بقولك "بسيطة ، ماما تشتري لك غيرها " ، حينها تنبه الولد إلى أنه قد تاه عن أمه ، ربما شغله ذلك بعض الشيء ، وربما زاد من ألمه ، اقتدته من يده باحثا عنها ، وكانت المفاجأة ، حين أخبرك باسمها وبعض مواصفاتها " ياه ، هل أصبح لها أطفال كبار هكذا ؟! " وعندما قابلتها ، تناولت من يدك الطفل باطمئنان وثقة باردة ،

كأنها كانت تراقبه ، شكرتك بابتسامة معدنية ، استشعرت فيها حدة الصلب الذي لا يصدأ ، والذي يصلح لصناعة الخناجر .....!!

٢٠٠٣

الحاجز

لا... أنت لست هنا من أجل سبع وعشرين درجة ، ما جئت من أجله يفوق ذلك ..

تحرص علي الخروج غير متوضئ ، ضمانا لحرية التمتع برؤيتها واستقبال نظراتها الشبقة ، التي تشعل النار في أرجاء جسدك ، تصر علي التأخر قليلا قبل أن تخرج ، ريثما يقوم والدها متوجها إلى المسجد ، عقب رفع الأذان مباشرة ، تاركاً لها أمور البيع ، وحدها ....وهذه فرصتك . ...

وها أنت أمامها ، وحرب النظرات تشتعل ، ، أفواج المصلين من أمامك ومن خلفك ، يسارعون إلى المسجد ، وأنت تتباطئ ، متشبثا بآخر نظرة ..حتى إذا وصلت ، تكون قد فاتتك ركعة أو اثنتان ....

الآن أنت مندس وسط الصفوف ، والإمام يقول " الله أكبر " ، تتبعه بحركات روتينية ، وما أن سلمت ، حتى قمت مسرعا ، لتلحق بها قبل أن تنصرف عند وصول والدها ، ... وبعد أن أخذت نصيبك الدوري من الإغراء بالنظرات والإيماءات المتخفية ، ها أنت تعود إلى المسكن ، يفيق ضميرك من خدره ، يؤلمك بوخزاته المتتالية الغائرة ، تهرب منها بصيحة حاسمة " سأصلي هنا ...في المنزل " ، كنت تعتقد أنك بذلك قد قهرت القوي الشيطانية التي تحاول إغواءك ، لكن ...لم يدم حالك طويلا هكذا – صلاة في المنزل – ، أصبحت مضغة في أفواه زملاءك المتشددين ، بل والمعتدلين ، يلحون في سؤالك ، تتعلل أمامهم بحجج واهية ، يستعرض كل منهم مهاراته في الخطابة والوعظ ، بتلقينك درسا في الفقه والشريعة ، وكل

أمور الحياة ، أصبحت منبوذاً من جانبهم ، أوشكت أن تكون فاسقا في نظرهم ، الفاجر منهم أصبح شيخا عليك ، وأنت المنشق الوحيد ، رضخت لضغوطهم أخيرا .، ونظراتهم المعبأة بالاحتقار ...

الآن ...، في ذهابك وإيابك إلى المسجد ، أو حتى في غير أوقات الصلاة ، تقاوم الرغبة في رفع بصرك ،إمعانا في سد الروافد عن تفكيرك المنشغل بها ، انقطعت عن رؤيتها ، لكنك لم تزل غارقا في التفكير فيها ، حتى أرهقتك المقاومة ، انفجر البركان الكامن ، خرجت مندفعا ، متعللا بأنك ستشتري شيئا ،...وعندما وصلت ، فوجئت بأنها غير موجودة ، ظللت تروح وتجئ في انتظار ظهورها ، حتى أصابك اليأس، أيقنت أنها لن تظهر قريباً ، ربما تكون قد سافرت ، لكن قلبك انقبض بشدة ، عندما تناهي إلى سمعك حوار دار بين أبيها وبعض أقاربها ، عرفت من خلاله أنها ترقد في المستشفي ، وستجري لها عملية خطيرة ، للحظة توقفت ، لم تلبث أن أكملت السير بطريقة عادية ، في اليوم التالي كانت الصاعقة ، لم تنجح العملية ،.....ماتت ، مزقتك الصدمة ، هرعت تصرخ كأنك من أهلها ، اقتحمت الجنازة مندفعا إلى النعش ، والدموع تنسكب من عينيك بلا تحفظ ، تعجب الناس ، ظنوك من أقاربها ، أصدقاؤك ظنوك متعظا من الموت ذاته ، بدأوا ينظرون إليك نظرتهم للأتقياء ...

وها أنت وحدك ، تمضي محدقا في الفرش ، تقدم طقوس الأسى والترحم اليومية ، حتى إذا وصلت إلى المسجد ، واندسست وسط الصفوف ،

أحسست بانكسار عميق ، وبالدموع تترقرق في عينيك ، رغم يقينك الجازم أنك لست خاشعا في صلاتك .....

٢٠٠٣

المغترب

كعادته ، يدهس كلام الناس تحت قدميه ، يبصق علي وجوههم نظرات الاستهانة ، ثم يشيح بوجهه مرتديا نظارته السوداء .

الآن ..يخرج علي عجل ، مسرعاً وسط الزحام ، يكتسح نظرات المارة ، الملأي بعلامات الاستفهام والتعجب ، ينثر في رؤوسهم ظنونا وتكهنات :

- " إنه يود اللحاق بالقطار "
- " لا ... ليست معه الحقيبة "
- " يبدو أن رحلته قد بدأت "
- " بل إنها انتهت "

.....

دقات الساعة قطعت أحلامه ، أدرك أن القطار قد فاته ، فغير اتجاه سيره ....

.....

في البعد .....تتراقص أضواء البحر في عينيه ، يرفع المنظار مستوضحا ، البحر أكثر توهجا ، ناره بلا دخان ، لكنها تلمع كالذهب الذائب ، الناس يقفزون ولا يرجعون ، وقف مترددا ، لا يملك جرأة المغامرين ، أدار ظهره للبحر عائدا ، فجأة ، استوقفه صوتها ، يناديه ، يدوي الصدي في كل الأنحاء من حوله ، يلتفت للوراء ، صورتها تملأ شاشة الأفق ، لم يقاوم ، انطلق بسرعة جنونية ، يمزق ملابسه ،

الداخلية والخارجية ، يصر علي العبور مجردا ،.....ثم ....ومن علي بعد ..وفي فورة الموج .....قفز ....، يبتلعه السعير ، ينصهر جسده ، يذوب في النار ، مخلفا جزيئات صغيرة ، تتحد مع جزيئات الأجساد الأخري ، مكونة خطا أحمر متعرجا داكنا ....تدحرجه الأمواج نحو الشاطئ ...

٢٠٠٣

أحضان شائكة

يمزقني إحساس بالفراغ والضياع ، كالصحراء المترامية التي أهيم فيها ، تضمحل أضواء النهار ومعها آمالى في اللقاء ، الليل يهرول ثم يتلكؤ في الرحيل ، مازال يحدوني أمل هزيل في العثور عليه ، أخترق الضباب الكثيف كأني أبحث عن ذرة صغيرة في سديم اليأس ، وهاهي أضواء الفجر قد بدأت في التتابع ، تبعث الحياة في آمالي المحطمة ، لكن عيني تأبي أن تكف عن بكاءه ، يلوح في البعد شبح غامض ، هزة عنيفة تزلزل كياني ، ملامحه تماثل الصورة القابعة في أعماقي ، أشعة الصباح تكشف تفاصيل هيئته ، تأكدت أنه هو ، خالجني إحساس مبهم ، مزيج من الحماس والرهبة ، وخزات الضمير تحبط كل محاولاتي للكف عن البكاء ، تلوح لي أمطار غزيرة ، تنهمر من عينيه ، تروي الأرضية الجرداء ، تبدأ النباتات والأشجار الخبيثة في النمو ، تتكاثر ، تمتد فروعها ، تتشابك أغصانها ، تلتحم بالأشجار المتكاثرة خلفي ومن حولي ، تكتمل حولنا الدائرة ، حصار محكم من الأشواك الحادة والأشجار المؤذية ، ذات الثمار المريرة ، يتأكد ظني ، كلانا يبحث عن الآخر ، أحس بمدي التوحد بين مشاعرنا ، ها هو يقترب مني ، لا يرفع عينيه كي يراني ، كأنه يتقدم نحوي هاربا من الأشواك التي تلهث خلف الأمطار المنهمرة من مقلتيه ، لا يدري أني أمامه ، أتقدم نحوه ، تدفعني أشواقي ، نتقارب ، تتضاءل بيننا الفوارق ، فجأة ، نتوقف سويا علي مضض ، كأن خيوطا شدت بالأشواك تجذبنا للخلف ، أراه يرفع جفنيه في تثاقل ، تتعانق النظرات في استحياء ، لا تلبث أن تعود في

انكسار إلى النظر أرضا ، نستسلم سويا للجلوس ، تزداد أمطار الحزن غزارة ، نتنبه إلى البحيرة التي تزداد اتساعا بيننا من سيل الدموع ، يشهر كل منا صنارته القديمة ، يلقي بها في البحيرة ، أختلس إليه النظر ، تارة خلال الماء وتارة علي الحقيقة ، متظاهرا بالصيد ، لم أكن أصطاد شيئا سوي كائنات سامة ، فجأة .....يرفع عينيه نحوي ، يضبطني متلبسا ، مستغرقا في تأمل وجهه ، يلوح لي بابتسامة تصارع الموت علي شفتيه ، لم أستطع الرد إلا بمثلها ، أعود لمتابعة الصنارة التي غاصت في الماء ، ها هي تهتز ، يبدو أنها التقطت صيدا ثمينا ، تتباين بين شد وجذب ، حتى أحسست أن الفريسة قد ابتلعتها تماما ، رحت أرفعها بحذر ، يقترب خروج الصيد من الماء ، ينتابني التحفز ، أفاجئ بخروج الصنارة فارغة ، مشتبكة بصنارته ، يرفع صنارته في نفس التوقيت ، ينهض كل منا واقفا ،يشد صنارته إلى الحد الأقصى ، نقترب عبر هذا الخيط الرفيع ، إلى نقطة التلاقي ، نتقارب ، نلتحم ، نغيب في عناق طويل ، عناق سنين الحرمان والتيه والظمأ ، تخترقني أنفاسه ، تدوي في أعماقي ، يرتد صداها رغما عني ، فجأة .....تجمد المشاعر المنصهرة ، يتلاشى العناق ، نكتشف أننا بؤرة لأنظار الوحوش الضارية التي باتت ترتع في الغابة الشائكة التي تحاصرنا .

٢٠٠٢

وهـــم

كان واقعياً حين اختار قطار الدرجة الثالثة ، وكان واقعيا أيضا في تسليمه بأنه سيمضي المسافة كلها واقفا ، لم يثنه ذلك عن محاولة البحث ، علـه يعثر علي مكان لأحد المغادرين قريبا ، كان مفاجأة بالنسبة له ما حدث :- مكان شاغر، فقط عليه قدمان عاريتان ، تردد متأثرا بواقعيته المفرطة ، التي أوحت له بأن صاحب المكان قد ذهب لقضاء حاجة ما ، وسيعود حتما ، وأن أصابع القدمين تلوح بعدم الاقتراب ، المفاجأة الثانية كانت أكبر :-

- "تفضل "

جاءته كالصاعقة من الجالس بجوار القدمين العاريتين ، تلفت حوله ، لم يجد أحدا معنيا بالنداء سواه ، جاءه التأكيد حاسما ليبدد شكوكه :

- "إجلس ...إجلس "

علي الفور أنزل صاحب القدمين قدميه ، أراح هو مقعدته في فخر واعتداد ، فهاهم البشر يقولون له تفضل ، ويلحون عليه بالجلوس ، كأن جلوسه في مكان هو شرف عظيم لمن يجاوره " أإلى هذا الحد قد يجهل المرء قيمة نفسه ؟ " ، أيقظته واقعيته ، أوحت له أن هناك لغزاً ، هذه الحفاوة وراءها سر ، قد تكون صداقة قديمة أو تعارف سابق ، دفعه الفضول إلى طرق باب الحديث مع الرجل ، طلباً للتعارف ، رد عليه بفتور ثم قام مودعاً :- "نازل المحطة القادمة إنشاء الله "

انكمشت نفسه ، سيفقد هذا الرجل ، الذي ظنه قريباً أو صديقاً ، لكن ...سرعان ما لانت أساريره ثانية ، تذكر أنه سيرث مكانه ، ذلك المقعد المريح بجوار النافذة ، اندفع إلى هذا المكان الساحر فور خروج الرجل ، وأخذ يتأمل في السماء والأشجار التي ترحل، كانت شفتاه مبتسمتين ، لكنه كورهما ثانية عندما اجتاحت أنفه رائحة كريهة ، لوي رقبته متلفتاً ، لم يعثر علي أي مصدر لتلك الرائحة ، تبعثرت نظراته بلا جدوي ، عادت أخيرا لتستقر علي القدمين العاريتين ، لم يستطع التركيز وإطالة النظر فيهما ، والرجل يلاعب أصابعه بنشوة ، كأنه يغيظه ، رماه بنظرة من زاوية عينه ، لكنه استحي أن يسد أنفه ، اكتفي بدفن وجهه بين طيات ذراعيه المثني علي النافذة وحاول أن ينام .. ...

تمني لو رأي شخصا واقفاً ، ليرجوه أن يجلس مكان هاتين القدمين ....

٢٠٠٥

قتيل النوم

يخربشني النوم كثيرا هذه الليلة ، إذا هممت بالنوم علي جنبي خربشني في ضلوعي وظهري ، وإذا عدلت علي ظهري ، يخربشني في جنبيّ ، لا أدري لماذا لا يريد أن يهدأ ويتركني أنام ، وعندما يئست ، قمت غاضبا ، لأمسكه ، هم بالفرار ، لكني استطعت أن أقبض علي ذيله ، وفي لمح البصر ، كنت رافعاً إياه ، ورأسه مدلي إلى الأرض ، هكذا لن تستطيع مخالبه أن تلمسني مهما حاول ، عافر معي فاغتظت ، وفي الحائط أخذت أخبط فيه بلا رحمة ، حتى هطل الدم من بين فكيه وأنفه ، زاغت نظراته ، ارتخت عضلاته .....مات ...!

ومن يومها فارقني النوم تماما ، ومازاد من أرقي ، الإحساس المرير بالذنب ، الذي بات يطاردني ..

في محاولة مني للاستعاضة عنه ، اشتريت دبدوباً يماثله تماما ، وضعته علي السرير ، لكن المحاولة لم تنجح ...وعندما كنت ساهراً علي الكرسي في الشرفة ، فوجئت به يتمشي أسفل المنزل ، وحيداً تحت ضوء المصباح كالتائه ، أسرعت بفتح الباب علـه يغريه بالدخول ، وبالفعل ، ها هو يتهادى بين جنبات المنزل ، هو بالضبط ، لكنه أصغر حجماً ، وأقصر ذيلاً ، يبدو أنه ابنه ، ظللت جالسا علي الكرسي ، جاء يتمشي وفي عينيه كلام كثير، وفي عينيّ أيضا ، ما هذا إنه أصبح بين قدمي ، يبدو أنه قد سامحني ، أخذ يلف ويتمسح في قدمي ، ثم .....

فوجئت بوالدتي تيقظني مستنكرة علي أن أنام في الشرفة :-

- قم يابني نام علي السرير .....

يبدو أني كنت في نوم عميق ، بالفعل هذا واضح من كمية الأحلام التي قبعت في ذاكرتي ، وجعلتني أنتظر قليلا ، استمتع بتذكرها قبل أن أنتقل إلي السرير .....

علي السرير ....حاولت النوم ، لكني بئت بفشل ذريع ، خرجت إلى الشرفة ، مرة أخري علّي أعثر عليه ، لم أجده ، أضئت المصابيح ربما كان مختبئاً في أحد الأركان ، ....خلف الباب .. لاشئ ، في المطبخ ..لا شئ ، ربما يكون في المكتب ، توجهت سريعاً إلى هناك ، أوه ...لقد نسيت أن أحضّر درس الغد ، فلأستغل الفرصة وأجلس لتحضيره الآن ..وعندما فرغت ، كنت من الإرهاق في نهاية ، قمت إلى السرير مترنحاً ، هناك ....وجدته مستلقياً في انتظاري ، رفع رأسه سريعاً ، ثم دسها ثانية ، بين طيات جسده الملفوف ، فلمحت في عينيه نظرة عتاب قديمة .

٢٠٠٧

القتادة

الشمس تحرق الأبدان ، طغت الأشواك علي الأرض ، صهرت الشمس أجسادهم الجامدة ، أخيرا تزحزحوا من أماكنهم ، بدأوا يحسون بوخز الأشواك، لكنهم يتشبثون بذيل النوم، تزداد حرارة الشمس ، بدأت الأشواك تنغرس في أجسادهم ، فازداد إحساسهم بالألم و أفلت منهم النوم ، هبوا من سباتهم العميق ، وجدوا أنفسهم غرقي في بركة دماء ، قاوموا آلامهم ، توجعوا ، لم يعرفوا مصدر تلك الأشواك ، تلفتوا حولهم في ذعر ، فوقهم ، إنها قتادة لعينة ، فوجئوا بها مزروعة بجانب نخلتهم ، ضيقت عليها ، فزعوا إلى النخلة ، حاول أحدهم تسلقها ، عاقته أشواك القتادة ، استمر في نضاله ، حتى هوي علي الأرض ، تهشمت أعضاؤه ، خار بنيانه ، حاول آخر ، لقي نفس المصير ، صرخ ، تجاهله الجميع .....

عزموا علي قطع تلك الشجرة المؤذية ، تفرقوا ، جاءوا بآلاتهم الصدئة ،التي أبلاها القدم ، انخرطوا في الكفاح ،تصبب العرق منهم ، تكسرت كل آلاتهم ،باءت محاولاتهم بالفشل .....

لم يرضخوا ، لجئوا إلى حيلة أخري ، أخذوا ينبشون في الأرض بأظافرهم ، في محاولة لاقتلاعها من جذورها ، استمروا ينبشون .....ينبشون ..... توقفوا فجأة .....ذهلوا .....هالهم المشهد .....جذور القتادة .....تشعبت ، تغلغلت ، تداخلت في جذور نخلتهم ، إذا اقتلعوها سيقتلعون نخلتهم ، ويموتون جوعا ...

تعبوا ، تراخوا .....استسلموا ....

حاولوا النوم ، يستيقظون بين حين وآخر ، يأكلون ما يسقط من النخلة ، ثم يواصلون نومهم ، فوق الأشواك ، لذلك .. لم يعد نومهم هادئا أبداً .....

٢٠٠٠

النـهيق

لماذا ينهق الحمار في هذا الوقت بالذات ؟!

هل يعرف أنك متهيج جنسياً فأراد أن يدفعك للإستعاذة بالله عندما تسمع صوته ؟!

ثم ما هذا النهيق الذي توالى بغزارة من الحمير المجاورة ؟!

هل استَشْعَرَتْ كثرة الشياطين في تلك المنطقة – جسدك – فأرادت القيام بما يشبه الثورة ؟!!!

ويبدو أن الحمير قد نجحت ، فها أنت تململ مستعيذا وقد طارت عنك الشياطين ، قمت تتمشي ، تتنفس هواء السمو والحرية ...

لكن الحمير مازالت تنهق بعنف ، أين هو الشيطان إذن ؟!

رفعت بصرك إلى آخر الطريق لتفاجئ بالحمار الذي ينهق في حالة هياج خلف أنثي تراوغه ، ومازال النهيق متواصلا .

٢٠٠٤

"الحساسية الجديدة"

قال إنه أكثر الناس حساسية علي الإطلاق ، وفي معرض تعريفه للإنسان الحساس أوضح أنه دائم التحسيس علي رأسه لما بها من بطحات كثيرة منتشرة في كل بقعة من رأسه وجسمه أيضا ، واعترف بأنه عولج وما يزال من حساسية في العين وحساسية في الصدر وحساسية جلدية ، لكنه يعاني الآن من آلام رهيبة في دماغه ، وأن الأطباء قد حاروا في تشخيصها ، وأنها فيما يبدو " حساسية جديدة "

٢٠٠٤

النجمة الآفلة

الكل مشدود في انتظار ظهورها ، العيون جاحظة ، الرقاب مشرئبة ، جاءتهم الأنباء بقرب ظهورها فوق تلك البقعة ، تجمعوا فيها ، يتقاتلون علي احتلال أماكن لأقدامهم ، ظلت قاماتهم منصوبة ثابتة ، كأنهم في صورة فوتوغرافية ، تسلل الملل إلى دماءهم ، البعض هم بالانصراف ، آخرون اعتراهم الإرهاق ، لم يستسلموا لليأس ، مددوا أجسادهم علي الأرض ، متجاورين ، مستلقين علي ظهورهم ، بعيون جاحظة وأفواه مفغورة ، جاء السحاب ، احتجبت النجوم ، تزداد السحب قتامة ، مازالت نظراتهم مسددة نحو السماء ، انهمرت الأمطار علي وجوههم ، تغسلها من غبار السنين ، ظن الجميع أنهم سيهبون فزعين ، لكنهم ما زالوا نائمين في انتظار نجمتهم ، وقد ازدادت عيونهم جحوظا وأفواههم أصبحت أكثر اتساعا، ويبدو أنها النومة الأبدية .....

إزعاج

السكون التام الذي أعقب خروج الشلة ، بعد سهرة فرفشة ، جعله يستلقي علي الكنبة كأنه مغشي عليه ، يفزع من استرخاءه اللذيذ علي صوت يدوي بانتظام كأنه صوت مطرقة تضرب ضربات متتالية عنيفة فوق رأسه ، يفكر هنيهة في مصدر هذا الصوت المفزع ، ينهض علي مضض ، يجول بعينيه علي أثاث الشقة المبعثر كأنه حطام مدينة مدمرة ،يبحث عن مصدر الصوت ، لا يجد شيئا ، بل لم يعد يسمع شيئا ، يعود للاسترخاء ثانية ، وقبل أن يهم بإغماض عينيه ، يفاجئه الصوت مرة أخري ، يعاود النهوض وقد ازداد حنقه ، يصوب نظرات استكشافية إلى أماكن متفرقة ، يخترق الكراكيب ، لا يجد شيئا ، تبدأ الوساوس في غزو أفكاره ، تتلاعب بأعصابه ، تتقافز في دماغه العفاريت والجن ، تطفو الحكايات القديمة القابعة في عمق ذاكرته ، ضربات قلبه ودوي أنفاسه المتلاحقة تعزف ألحانا مرعبة ، يرقص عليها الموت بداخله ، فجأة .....يتوقف كل شيء، يتناهي إلى سمعه صوت المؤذن ، يردد معه الأذان ، يتوجه للحمام ، يتوضأ ، ثم يغلق الصنبور ، يعود فيحكم إغلاقه ، يصلي ركعتي الفجر ، يعود للاستلقاء ، ينتظر ظهور الصوت متربصا ، لكنه لم يسمع أي شيء هذه المرة .....

القاتل

كان قراره محسوماً ، مشروبه الأبدي علي أي مقهي هو الساقع(*) ، ولا شئ غيره .....

سحب كرسيا بلاستيكيا وجره في ركن معزول ، لاح القهوجي بجلبابه المتسخ ، ...ها هي اللحظة الحاسمة تقترب ، لحظة الانسحاب .. وها هو يعلن انسحابه الطوعي والعلني من جنة الشاي ..ليتنازل عن عشرين عاما قضاها في الاستمتاع بذلك النعيم ...تارة علي السطح ..وتارة في ظل شجرة في الجنينة وتارة علي البحر، أو أمام مباراة كروية ساخنة .....آآه وداعا أيتها المملكة الضائعة ، ولا عزاء لي إلا الذكريات ...التفت إلى الجبل ، سرح في الشمس التي بدأت تنزلق من أمامه بسرعة ..أفاق علي صوت رنين الملعقة ، دهش ، عندما رأي الكوبين ، وكأنه قد أخذ علي حين غفلة ...صاح :-

- ألا تعرف أني ....؟!
- "يا عم كبّر دماغك " باستهانة رد الصديق، " اعتبرها آخر كوب يا سيدي " .....

شعر بارتباك ، اختنق ، نازعته رغبة في القيام ، وفجأة ... هدأ أو تصنع الهدوء ، حاول أن يبتسم وهو يقول :-

- عادي ، أسكب الشاي على الأرض ...

لم يظفر من صاحبه إلا بنظرة صامتة ، قرأ فيها الكثير من مشاعر الشفقة ، المتخفية خلف ابتسامة مصطنعة ...حاول أن يهون الأمر

علي نفسه ، انتزع ضحكة ميتة وقذفها في وجه صاحبه وهو يقول كأنه التقط صيدا :-

- فكرة أحسن ....!!

بنفس النظرة الصامتة توجه إليه ....استطرد :-

- بعد أن أشرب الشاي أعفر الكوب بالتراب ...

تحول عنه الصديق الذي بدأ ينظر للموضوع باستغراب ، فأراد أن يثبت له أنه جاد في كلامه ، قال :-

- بهذا سأضطره إلى غسلها جيدا ..

لأول مرة يسأله :-

- وفي كل مرة تشرب فيها شايا علي أي مقهى ستقوم بذلك ؟!!

بحسم صاح :-

- لن أشرب غير الساقع ....

عاد الاثنان إلى الصمت ، هرب كل بنظراته ...

- "الشاي برد يا أستاذ "...

هزه صوت القهوجي ، وكأنه يزجره ، ويأمره ، انصاع للأمر وكأنه غير واع ، رفع الكوب إلى فيه ، ما أكره أن يشرب الشاي بارداً ، دلقها في جوفه دلقاً ، لأول مرة يتعامل مع الشاي بقسوة ، هكذا كأنه يتجرع دواء ...، سرعان ما عاد القهوجي ، كأنه كان في انتظار تلك الكوب بالذات ،

نظر إلى الكوب الفارغة ، والقهوجي يقترب ، وعندما رأى يده تمتد إليه ، ود لو يفعل شيئا ، يقلب الطاولة ، يصرخ ، يفعل أي شئ ..

لكنه استسلم لأسهل الحلول ، وأصعبها على نفسه :-

- لو سمحت ....

برجاء خاطب القهوجي الذي خطف الكوب خطفا ،..

- اغسلها جيدا ...هذه الكوب ،هه ....هذه ...

- حاضر ..

- ضروري من فضلك ..

- حاضر .... ،،،، ثم بعد أن رآه يبتعد :-

- التي فيها الملعقة ...

تابعه وهو يمضي ، وصوت الأكواب الفارغة يطقطق في يديه بعنف كأنه لحن دموي لمأساة وشيكة ، توقف بعيدا ، رآه يرفع إحدى الأكواب إلى أنفه ويرسل إليه نظرات ارتياب ....التفت إلى صديقه الذي كان يتابع الموقف بصمت :-

- انظر ! ....إنه يشمها ...يشك في أني ...

قاطعه الصديق بلهجة قاسية وبنفاد صبر :-

- طبعا لا بد أن يشك ..ما معني اغسلها جيدا؟ ..ببساطة.. كنا نشرب فيها حشيش ...

شعر ببعض الندم ، أراد أن يهدئه ، قال :

- أنا كان قصدي ...قاطعه بملل :-

- ياعم عارف ...قلت لك هذا الموضوع عادي ، وعند كل الناس ...

- لو أنه عادي ما منع الناس من السفر بسببه ..

- هذه مسألة رزق .... الرزق سيأتيك ولو علي فراشك...

عاد ينظر إلي السماء التي أصبحت سوداء والناموس يرتع في ضوء المصباح المجاور ، ...كان يتابع نظرات القهوجي التي انضمت إليها نظرات أخري ، أفاق علي لدغة شرسة ، جعلت يده تهوي لا إراديا علي ذراعه العارية ، دوي الضربة هز كل الرواد من حوله ، لم يعبأ ، راح يتابع الناموسة التي طارت وقد امتصت جزءا من دمه ، تابعها منتظرا أن يري الشخص الذي ستحط عليه من بعده ، لكنها ظلت تبتعد حتى اختفت في الفراغ.

٢٠٠٨

---

* الساقع: تطلق في الصعيد على زجاجة البيبسي أو الكوكاكولا

حذاؤها

هو كلمة السر، شريطان يُبرزان بياض القدمين الممتلئين، نعل مستو لكنه مرتفع عن الأرض كثيراً، الآن تبدو طويلة وممشوقة ببنطالها الجينز المثير وجيبتها الوردية بلون الروج على شفتيها، الآن تقترب من الصورة التي تعجبه وتبتعد عن منطقة انتقاده لها بأنها قصيرة ...

لم تكن هكذا أول عهدها بالعمل في الشركة، تغير لبسها تماما بشكل يشي بانتقالها المفاجئ....

الحذاء بالذات كان مجرد كوتشي..... كانت تبدو مثل طفلة جاءت تلعب...

فجأة أصبح لمشيتها صوت منظم على الأرضية الخشبية للشركة. في البداية، باتت تعرف بهذا الصوت، بدّلت بين عدة أنواع من الأحذية ذات الكعب العالي حتى استقرت على هذا الحذاء....

ولكي تتأكد، كثيراً ما تسألني باستغراب: هل أنا قصيرة؟!

كنت أجيبها بالنفي واصفاً قوامها بالساحر والجذاب وغيرها من كلمات الغزل.. أزعم أني لست منافقاً، فهذا حقيقي.

أصبح كل شيء ظاهراً للعيان، كمثال على العلاقة التقليدية بين المدير والسكرتيرة، الضحك والقهقهة والتمايل غير العادي.....

لكن الجميع يحاولون إقناع أنفسهم بأنه عادي... ربما خوفاً على لقمة العيش وربما من باب "وأنا ما لي.."

إلا أنا...

ظلّت ترسل إليّ نظرات الإعجاب وعبارات الاستلطاف..

بدأت أنجذب إليها و كدت أصدقها...

لولا حذاؤها العالي... العاري.

٢٠١٢

لغة

الجميع في قرارة نفوسهم يلعنون السائق، يأبى التحرك رغم أن السيارة لا ينقصها سوى راكب واحد،

زاد من حالة القرف أن السيارة صغيرة كالحُق، حتى أن الرؤوس تلامس سطحها، الجو حار والوقت متأخر، الثانية عشرة ليلا، الجميع يرغب في العودة إلى الأعشاش سريعا.

جنب الشباك أنا، ربما يكون ذلك هو ما جعلني أشعر بملل أقل

وأتلذذ وأنا أرى الضجر يزيد من تململات الركاب ونفخاتهم ويزيد من حرارة الجو داخل السيارة

أخرجت رأسي من الشباك، منتحلاً شخصية التباع رحت أنادي: واحد منيب، واحد منيب...

في البعد يتراءى كأنه قادم من المجهول

- منيب..؟

في لهفة سألت وأنا أصوب إليه نظراتي ولم تكن هناك حاجة لأشير بإصبعي فهو يبدو وحيداً بين الأضواء الكثيرة لميدان الجيزة:

قطع مسافة واقترب قبل أن يسأل مصوباً سبابته نحو السيارة كمن يصوب سلاحاً:

- فيه تدخين؟

كان شرطه قاسيا، ليس لي الحق في أن أرد عليه بالإيجاب، غير ذلك فهو يعرف الإجابة....

بلا تردد قلت:-

- يا عم تعال ودخن براحتك، حتى شيشة....

امتعضوا جمعياً، ولكن أحداً لم يجرؤ على الكلام،

تململ الرجل الجالس أمامي، هيئة وقورة ووجه أبيض ممتلئ وبدلة أنيقة وكرافتة لامعة..بنظارته الثمينة، وبثقة زائدة وهدوء كالذي يسبق العاصفة، حوّل رأسه إلى الوراء، بتأنٍ شديد كأنه في مشهد يُعرض بالبطيء:-

- ماذا تعني بـ "دخَّن براحتك"؟

تراجعت بسرعة، همست وأنا ابتسم و أعض على شفتي ممازحاً إياه:-

- "استدراج".. ليس إلا..

حول رقبته بنفس البطء الآلي، مع ابتسامة رأيته يحاول كبحها. لم أدر سبب الابتسامة، هل غرور لتراجعي السريع ، أم استملاح لردي..

ولم أدرِ لمَ يحاول كتمانها، أحفاظاً على وقاره أم رغبة في حبك الدور على الراكب الجديد الذي دخل للتو....

سلسلة معدنية تتأرجح متدلية من رقبته وهو ينحني قبل أن يجلس. بنطال جينز ضيق ساقط تحت الخصر حتى بان منه البوكسر، شعر منكوش ولامع يظنه الرائي ناعماً ومبلولاً إلا أنه ناشف من أثر الجيل، بمجرد أن جلس على الكرسي انطلقت السيارة قبل أن يغلق

الباب، كأن السائق كان يخشى أن يرجع هذا الراكب في كلامه وينزل،

بمجرد أن أغلق الباب عاجلته:- التدخين ممنوع في المواصلات لو سمحت...

في صدمة قاسية أدار رأسه نحوي، بنفس بطء وأسلوب الرجل الأول، إلا أن وجهه يابس وأسمر ولا يرتدي نظارة ، وسأل مع ابتسامة مريرة لم تُظهر أسنانه:

- كان "جَرْ رِجْل" يعني؟....

٢٠٠٩

الكائن

منذ أن بدأت أدرك وأنا ألاحظ أن والدي يعامل الناس معاملة غير التي يعاملها لأبنائه.. يضحك مع كل الناس ويدخل على أبنائه بالشتيمة، ويرد سلامهم بصياح عنيف ومشادات تجعلهم يهربون من استقباله في المرات القادمة.. يراني الناس فيتعجبون "لماذا لم تخرج شبه والدك.. يضحك مع طوب الأرض.. ما هذه الكآبة؟".. فأستحي أن أذكر شيئا عن والدي أو أشرح أنه السبب في ذلك.. حيائي منبعه عدم شكوى الخالق للمخلوق من جهة – كنت كبيراً أدرك هذا الكلام– ومن جهة أخرى حتى لا أهدم صورة والدي في نظر الناس وأعطيهم فرصة اقتناص أسرار بيتنا، وثالثا حتى لا ينظرون إلى نظرة شفقة.

نخرج أنا وأبي سوياً من البيت مكفهري الوجه، مودعين البيت ومن فيه بمشاحنة كبيرة علت فيها أصوات وسالت فيها دموع، وانهدمت فيها جسور، وتقدمت فيها قلوب نحو الشيخوخة المبكرة ..ويقابلنا أول عابر، فيلقي علينا التحية التي عادة ما تكون ممزوجة ببعض المزاح، فوالدي ضحّاك مع الناس.

يكون وجهي معقودا بالكآبة فلا أستطيع مجاراة العابر إلا في رد السلام، وأحيانا تفلت ابتسامة خفيفة سرعان ما تفر هاربة.. إلا أن وصلة من الضحك تنطلق بين الرجل وبين أبي أعجب فيها لسرعة البديهة الفائقة لأبي وقدرته على التفكه وتحويل الموقف إلى مشهد مسرحي كوميدي، ويودعان بعضهما ضاحكيْن بينما أنا كئيب بينهما كأني مادة لضحكهما ..

فيطل السؤال الراقد في أقصى ركن من رأسي لا يبرحه إلا كالكائن الذي يقوم ليحضر قوته الذي به يعيش ويكبر، ثم يعود مرة أخرى، وهذا الكائن يستمد غذاءه من هذه المواقف – وما أكثرها– مما جعله يكبر ويكبر حتى تعملق وزادت مساحته في رأسي بطريقة لم تعد محتملة بالنسبة لي.. فغادر رأسي وبدأت أجهر به ..طرحته على إخوتي لعلي أجد إجابة عند أحدهم.

فوجئت بأن هذا الكائن رابض في رؤوسهم جميعا ولكنه كان الأكبر عندي.. ربما لأني أكثر من يرافق والدي في جولاته المليئة بالمواقف التي يتغذى عليها هذا الكائن الرهيب.

بعد أن اتضح أن الموضوع شأن عام وليس خاصاً بي وحدي، تحول إلى مادة للتندر والتفكه بيننا ننتزع منه الضحك الذي يعد سلعة غالية جداً في بيتنا.

وفي إحدى المرات كنا قد انتهينا أنا ووالدي للتو من تبادل عادي للرأي تحول – كالعادة – إلى غذاء لذلك الكائن المتخم.. إذ نادى أحد أصحاب والدي.

خرج أبي بالترحاب والاستقبال الحار، ونادى عليَّ أن آتي بكرسي وأن أعمل شايا وولعة وأعمر الجوزة.. أمرتهم في الداخل بأن يصنعوا شاياً، أحضرت ثلاثة كراسي ووضعتهم أمام باب المنزل، بجوار تكعيبة العنب، التي لا نجلس تحتها إلا أثناء النهار، أما الآن، في هذا الليل الصحو، فما أحلى الجلوس تحت النجوم في حراسة النخيل.

أخذت أبحث في الظلام عن قطعة من الخشب تصلح لعمل ولعة.. وأخيراً عثرت على فرع جوافة بين أشواك الليمون المتراكمة أمام المنزل لاستخدامها في إشعال النار في الشتاء.

أشعلت ناراً على مقربة منهما.. وعندما أحضرت الجوزة وجلست أعمرها وأضع المعسل في الحجر وفوقه الولعة.. كانت هناك فرصة عظيمة للكائن لكي يتغذى.. فالضحك على أشده بين الصاحبين.. الأول يحكي لوالدي كيف أن جميع ما لديه من تقاوي البرسيم التي ادخرها من الموسم الماضي قد ضاع ما بين الأرض وبين توزيعه على الأقارب حتى أنه اضطر لشراء كمية في آخر الأمر.

بدا أن هذا الكلام قد أصاب والدي بخيبة أمل.. إلا أنه لم يثنه عن مواصلة الضحك.. فقال: هذا يعني أننا تركنا المولد بلا حمص؟

كان سؤالا ذليلاً في هيئة مزاح جعل لفحة سريعة من الضيق تضربني أمام الضيف الذي بدا أنه يحاول بشتى الطرق الخروج من المأزق مع المحافظة على جو المزاح.

وبالفعل استمر الضحك والمزاح كأن شيئا لم يكن، وكأن ليس هناك طَلَب طُلِب ولم يلب أو مصلحة خاب العشم فيها.. وحدي أحسست بالكآبة.

وعندما هم الضيف بالمضي قام معه أبي حتى آخر الطريق.. وكانت الابتسامة والضحكات هي عنوان الوداع.

بمجرد أن استدار إليّ والدي رأيت وجهه يتغير.. تقريبا منذ تلك اللحظة بدأ الكائن يجوع حتى أوشك على الموت.

٢٠١٢/١٠/٢٨

البئر

عندما بدأ يتعرف على ما حوله، لم يميز إلا شكل البئر، جدران طينية ملساء ومياه قليلة..

يتزاحم الناس عليها بينما هي تهرب منهم لأسفل، فيتقاتلون على النزول للحاق بها...

أحيانا تأتي "بكَّة" مفاجئة من أسفل فتغمر الجميع لفترة وأحيانا تأتي نفحة من أعلى فتفاجئ الجميع أيضا مفاجأة سارة، وتجعلهم ينصرفون لبرهة عن الحفر بأظافرهم...

الكل يعرف مصدر البكّة

لكن لا أحد يعرف من أين جاءت النفحة ثم لا تلبث المياه أن تقل تدريجياً ويبدأ الناس في التقاتل للوصول إلى القاع الذي يزداد ابتعاداً كلما تقاتلوا في الوصول إليه

يتعارك الاثنان ومن يغلب يحمل المغلوب ويرفعه لينزل مكانه..

طفلاً كان...

والأطفال لا يتعارك معهم أحد...منعّمون في القاع دوماً، فهم لا يحتلون مساحة كبيرة، ولا تسعفهم قوتهم للحفر

منذ أن هبت المياه من أعلى ذات مرة، بدأ ينظر لأعلى، كانت تبدو له فتحة البئر بعيدة جداً، إلا أن الحلم كان قد نبت..

وبدأ يتسلق الجدران، على الرغم من أن الزحام كان يقل كلما صعد لأعلى، إلا أن الجدران كانت ملساء صعبة التسلق وكانت تستلزم أظافر حادة قوية أيضاً أقوى من تلك المطلوبة للحفر. نظر إلى أعلى فوجد فوهة البئر لا تزال بعيدة للغاية تكاد لا تُرى، إلا أنه كلما تسلق بضعة أمتار زاد اتساع الفوهة كثيراً..

كانت الأشعة التي ترميها الشمس في فتحة البئر تزيد من إحساسه باتساعها، مما كان يبث فيه قدراً مضاعفاً من الأمل.

كلما ارتفع، كانت الجدران تجف، وكانت طاقته تزداد حتى أمكن له أن يهدم موطئاً مريحاً لقدميه...

كان هناك أناس آخرون يتسلقون....بعضهم يمد يده ويسحب الآخر، وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للمساعدة، البعض الآخر بدا مدرباً جيداً بحيث لم يحتج إلى أحد، أمكن بعد ذلك سماع وشوشات في الأعلى وأصوات عصافير وأصوات أخرى غريبة وجذابة لم يعهدها من قبل، زادته قوة ورغبة في إكمال الرحلة..

وأخيراً وصل إلى فوهة البئر، وقف قليلاً وإحساس بالانبهار يهزه بعنف..

ثم جلس على فوهة البئر وهو لا يزال مذهولاً كمن ينتقل إلى كوكب آخر، يشم هواءً جديداً ويرى أشياء جديدة، كأنه كان أعمى وعاد إليه البصر فجأة

ظن أن هذه هي النهاية، وظن أنه أحد الأشخاص المعدودين الذين نجحوا في ذلك، لكنه فوجئ بأن على فوهة البئر هناك عالماً آخر، البئر ما زالت كما هي... عالية، إلا أنها أكثر اتساعاً ، وهناك أناس كثيرون يتسلقون الجدران هنا أيضاً، لكنه لا يستطيع تمييز ملامحهم، لبعد الجدران عنه... والتي بدت أكثر يبوسة ونعومة..

هناك من اكتفى بالوصول إلى هنا، وأقام منزلاً أو دكاناً يبيع فيه شاياً وسندوتشات للصاعدين

بل إن البعض يلعب الكرة ويمارس هواياته من قراءة وغيرها

نظر إلى الجدران البعيدة، الناس يتعلقون كالدود، هناك من يسقط ثم يعاود الصعود، حتى يكاد يصل إلى أعلى البئر فإذا به يسقط

وربما يكون أحدهم قد وصل إلى الفوهة الثانية

ولا شك أن فوق هذه الفوهة أناساً آخرين يلعبون و يقرؤون ويبيعون الشاي والطعام

ولكن لا شك أن البئر هناك أوسع بكثير منها هنا

رفع بصره إلى أعلى

تراجع قليلاً ، أخذ يتمنى ولكن التردد جعله في حاجة إلى مزيد من القوة، وفي غمرة الشعور بالنشوة....وبينما عيناه مصوبتان إلى أعلى نحو الفوهة الجديدة...سقط

٢٠١٢

هروب

بعد أن قهر الأعداء، ارتمى سكيراً بنشوة الفوز وسلطان الغرور، وأحس بطعم لاذع للنصر، لكنه فوجئ بعدو لم يتخيل قوته، حتى أنه لم يقو على مواجهته فهو يعلم أنه هالك لا محالة، فر هارباً، وفي طريقه كان يكتسح المزيد من الأعداء اللذين يحاولون التجمع للانقضاض عليه مرة أخرى، وظل هارباً حتى مات.....

٢١٣/٤/١٠

الغريق

أيقن أنه غارق لا محالة، لم يمنعه ذلك من رفع يديه في محاولات النجاة الأخيرة....

رأته خشبة هائمة وأشفقت عليه لما رأت الفقاعات التي تخرج من فمه وتوشك أن تكون الأخيرة، جرت نحوه حتى اصطدمت بيده، فتعلقت بها روحه، سحبته إلى البر، ارتمى يلتقط أنفاسه ويستعيد حياته التي كادت تهرب...وكانت هي بجواره تنظر إليه وتبتسم في فرحة تتذوقها لأول مرة، فها هي أخيراً تشعر بأن لها فائدة...

بدأ الهواء يضربه والشمس تمتص ملابسه حتى جفت وبدأ ينمو لديه اليقين بأنه لم يعد مهدداً بالموت،

في هذه الأثناء مرت أمامه سفينة إنقاذ فاخرة

نظر إلى الخشبة الباسمة بجواره وامتعض

٢٠١٣/١٠

أمنية *

أمنية *

ألم يحن دوري؟، لقد تعبت من الانتظار، ها قد أصبحت في أبهى صوري، مع كل يوم يمضي، تدق نواقيس الخطر في قلبي، وتزداد التجاعيد والخطوط وتتقارب لتخنق شبابي الذي بدأ يوليني ظهره، مقاومتي تضعف كل يوم، متى تهب رياح الحب؟

لم أعد أحتمل وضعي هكذا، معلقة بين السماء والأرض، أصبح كل شيء حولي بلا طعم، الفضاء الفسيح والسماء الضاحكة والسحب المسافرة، الكون يضيق، العصافير التي كانت تؤنس وحشتي بالأمس القريب، أصبحت أصواتها تنخسني كل يوم بقسوة لتحثني على الرحيل، تلك النسمات الرقيقة التي تداعبني، الزهور الصغيرة التي كانت تناديني وأنا صغيرة، كل شيء أصبح يضمر لي إحساساً بعدم الترحيب، وكأن لم يكن بيني وبين كل هؤلاء علاقة عشق بالأمس القريب. يا لها من قسوة..

رباه، تبدو الأمنية كالحلم، مجرد حلم، هل يأتي يوم أغادر فيه هذا المكان الذي سئمت جماله...

كلما نظرت إلى أسفل، تجتاحني شهوة السقوط فأقمعها، أحافظ على تماسكي بكل قوة أمام العواصف والإغراءات..

متى يراني الصياد؟ إنني الآن في أشد الشوق إليه، خائفة على نفسي، يُهيأ لي أني سأسقط عند أقل هزة ، أو نظرة حانية مشتاقة.....

الرياح أصبحت شديدة...ورفيقات الدرب كلهن غادرن..وتركنني وحيدة، وأخاف أن أظل هكذا إلى الأبد...

لكن..مهما تركني الجميع، لن أسقط...لن أسقط

---

*من مذكرات ثمرة مانجو ناضجة على الشجرة في ليلة عاصفة

المحتويات

- إهداء ٢
- السحابة الذهبية ٣
- بناء على طلب الجماهير ....إعادة ٤

- انتصار بالفرار ٧
- المنبوذ ٨
- الدون ١٠
- انتقام في جعبة الموت ١٢
- أمطار نجسة ١٤
- العملاق ١٦
- الجوع ١٧
- انتقام ١٩
- الصديق المجهول ٢٠
- المسبحة ٢٣
- النظرة الدامية ٢٤
- سوء فهم ٢٥
- النسمة ٢٦
- استعاذة متأخرة ٢٧
- مزاح ٢٨
- الحب الأخير ٢٩
- الموءود ٣١
- معابر ٣٢
- الحاجز ٣٣
- المغترب ٣٥
- أحضان شائكة ٣٦
- وهم ٣٨
- قتيل النوم ٤٠
- القتادة ٤٢
- النهيق ٤٣
- الحساسية الجديدة ٤٤
- النجمة الآفلة ٤٥

- إزعاج ٤٦
- القاتل ٤٧
- حذاؤها ٥٠
- لغة ٥١
- الكائن ٥٣
- البئر ٥٦
- هروب ٥٩
- الغريق ٦٠
- أمنية ٦١